للريح مجرى آخر

جولة في أدب المخارج وصناعة البديل

قد يوصد الباب فينكمش معه خيال صاحبه، كأن الجدار استوفى الجهات كلها. ويبدأ المأزق الحقيقي في هذه اللحظة، حين تنحصر المسالك في صورة واحدة ويظل الساعي يعاودها بالقوة نفسها. أما أول المخرج فهو أن يرفع بصره عن الباب، ويفتش في هيئة المسألة نفسها؛ فربما كان الذي حسبه عبئاً عدة، والذي رآه عيباً منفذاً.

وأذكر أني تتبعت مرة خبر تأبط شراً في (الاختيارين)، فاستوقفني فيه أن النجاة خرجت من قلب الغنيمة التي جرته إلى الخطر. رأى نحلة على الماء فتبعها إلى جبل، وصعد إلى عسلها وملأ به زقاقه. وبلغ خبره لحياناً، فجاؤوه وهو في غار وأحكموا الحراسة على فمه. رأى السهام عند المدخل، ورأى في ناحية أخرى فجوة تهبط إلى أصل الجبل. عندئذ أفرغ العسل فيها حتى سال، واحتضن زقاً أبقاه ملآن، ثم انحدر عليه حتى بلغ الأرض وأفلت.

أحكمت لحيان الحراسة عند فم الغار، ثم شغلها المدخل الظاهر عن بقية الجبل. وأعاد تأبط شراً النظر في عدته وفي هيئة المكان. صب العسل في الفجوة حتى ألان مسيلها، واتخذ من الزق ما يقيه صدمة الانحدار. صار ما خرج يطلبه أول النهار عدة لنجاته في آخره، وأدت الفجوة بالحيلة عمل الطريق. تلك خلاصة صناعة المخرج؛ تحويل الموجود، بعد أن تعجز صورته الأولى، إلى وظيفة جديدة. ثم قال أبياته، فجاءت خلاصة للحزم الذي عمل به في الحصار:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده
أضاع وقاسى أمره وهو مدبر

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً
به الأمر إلا وهو للأمر مبصر

فذاك قريع الدهر ما عاش حُوَّلٌ
إذا سد منه منخر جاش منخر

كلما عدت إلى الأبيات توقفت عند الوصف الذي اختاره الشاعر لصاحب الحزم، (حُوَّل). والعرب تقول للداهي (حُوَّل قُلَّب)، تريد أنه يقلب الأمر على وجوهه حتى يرى ما وراء ظاهره الأول. وفي هذا التقليب ترد الحيلة المحمودة المسألة إلى سعتها بعد أن ضيقتها العادة؛ فيأخذ الشيء وظيفة جديدة، ويغدو العيب منفعة، والثقل عدة. وقد اجتمع ذلك في الغار؛ فالعسل ألان مسيل الهبوط، والزق خفف صدمته، والفجوة أدت عمل الطريق.

ومما ثبت في ذهني، وأنا أراجع باب الدهاء في (عيون الأخبار)، حوار معاوية وعمرو بن العاص. سأل معاوية عمراً عن دهائه، فقال عمرو (لم أدخل في أمر قط فكرهته إلا خرجت منه)، فقال معاوية (لكني لم أدخل في أمر قط فأردت الخروج منه). هذان ضربان من حسن التدبير؛ أحدهما يزن الأمر قبل أن يدخله، والآخر يستخرج لنفسه جهة الخروج بعد وقوعه فيه. دهاء معاوية يحسن اختيار المدخل، ودهاء عمرو يحسن الحركة بعد الدخول. ويحتاج المرء إليهما معاً؛ لأن الاختيار يسبق بعض المآزق، وبعضها يهجم بغير استئذان، وقد يتبدل الأمر بعد دخوله.

ويتصل بذلك مثل السمكات الثلاث في (كليلة ودمنة)، إذ يجمع تدبير ما قبل الشدة بتوليد المخرج في أثنائها. سمعت ثلاث سمكات صيادين يتواعدان أن يعودا بالشباك. بادرت إحداهن إلى النهر قبل إغلاق المجرى، وبقيت الثانية حتى عاد الصيادان وسدا

المنفذ، فتماوتت وطفت على الماء. أخرجاها ووضعاها قريباً من النهر، فوثبت إليه ونجت. أما الثالثة فظلت في إقبال وإدبار حتى وقعت في الشبكة.

وفي هذا المثل تجتمع صور الاستباق والاستدراك والحيرة. وتبرز في توليد المخرج حيلة السمكة الثانية؛ أظهرت نفسها صيداً ميتاً، فحملها الصياد بيده إلى الموضع الذي أمكنها منه الفرار. جعلت فعل خصمها حلقة في نجاتها، بينما أكل التردد مهلة الثالثة حتى انتهى الأمر.

وفي أثناء جمع هذه الشواهد ألح علي مثل (يا عاقد اذكر حلاً). أصل صورته فيمن يشد حمله، فيدع في عقدته وجهاً للفك حين يحين النزول. وإحكام العقدة أن تؤدي غرضها ويبقى حلها في يد صاحبها؛ وكذلك الخطة الرشيدة تتهيأ منذ البدء للتعديل والرجوع. فالعقدة التي تبقي لصاحبها سبيل فكها أدعى إلى الإحكام من عقدة تستحيل قيداً على عاقدها.

وقد دونت إلى جانبه، حين كنت أراجع (مجمع الأمثال)، قولهم (أن ترد الماء بماء أكيس). كان المسافر يحتفظ بما معه حتى يبلغ المورد ويتحقق منه. ويقاربه وصف الحرباء في (ديوان المعاني)، فهي (لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً). في الصورتين ينتقل المرء وهو ممسك بسند صالح حتى يستوثق من موضع القدم التالية. والبديل المبكر يمنح صاحبه زمناً للروية، ويحفظ قدرته على التراجع.

وفي (مجمع الأمثال) مر بي قولهم (إن لم تغلب فاخلب)، وقد أورده الميداني في خداع الحرب.

ولم أجاوز هذا الموضع من (مجمع الأمثال) حتى استوقفني قولهم (إن جانب أعياك فالحق بجانب)، ويجاوره قولهم (كلا جانبي هرشى لهن طريق). كثيراً ما تبدأ العثرة حين يهب المرء المسلك الأول سلطاناً فوق قدره، فيواصل طرقه وقد اتسعت حوله الجوانب. والعدول هنا وفاء بالغرض نفسه، وتبديل للمسلك الذي قصر عن خدمته.

وفي معنى مجاوزة المتعذر إلى المقدور يرد قول عمرو بن معديكرب:

إذا لم تستطع أمراً فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع

يفهم البيت بعد امتحان الاستطاعة وبذل الوسع؛ فالثبات محمود ما دام موصولاً بالغاية، فإذا انفصل عنها واستحال تشبثاً بطريقة واحدة عطل صاحبه. وكثيراً ما يزيد الزمن المنفق تعلقنا بالمسلك، حتى يصبح فتح الباب أهم من الوصول إلى ما وراءه. وهكذا يمضي جهد آخر في إثبات صلابة الجدار، وفي متناول صاحبه مسلك آخر جدير بالتجربة.

وفي (البيان والتبيين) قول أورده الجاحظ يجاوز هذا المعنى، وهو (إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون). بيت عمرو بن معديكرب يحول الجهد من المتعذر إلى المقدور، أما الحكمة التي رواها الجاحظ فتتناول المطلوب نفسه. فقد يقبل المقصد التأخير أو التجزئة أو تغيير الصورة، ويبقى لبه حاضراً. والبديل الناجح أقرب الصور إلى الغرض، وإن خالف الهيئة التي ألفناها.

ومما علق بذهني من (حماسة الخالديين) قول عبد الله بن الحسن، وفيه ترد الأرض بسعتها على من يظن أنه يملك إغلاق السبل:

فإن بنت عني أو ترد لي إهانة
أجد عنك في الأرض العريضة مذهبا

فلا تحسبن الأرض باباً سددته
علي ولا المصرين أماً ولا أبا

تكشف الأبيات منشأ كثير من المآزق؛ يضيق الأمر حين تختزل الأرض في باب واحد، أو تختزل الصلات في شخص واحد. ويجيء قول معن بن أوس على المعنى نفسه (وفي الناس إن رثت حبالك واصل، وفي الأرض عن دار القلى متحول). فالبديل قد يكون داراً أو صلة أو هيئة جديدة للمقصد، وربما صلح المفتاح وجاء الخلل من الباب.

وللكلام نصيبه من صناعة المخارج؛ ففي المعاريض مندوحة عن الكذب، أي سعة للعبارة الصادقة حين يطلب المقام ستراً مباحاً أو دفعاً لحرج. ويبقى حق الغير حدها الفاصل؛ فما أبطل حقاً أو أثبت باطلاً خرج من المعاريض إلى الخداع.

وأذكر أن طرفة أبي دلامة في (العقد الفريد) بدت لي، بعد هذا، أعمق من ملحة مجلس. ألزمه المهدي أن يهجو واحداً ممن حضر، ونظر الشاعر فإذا القوم ذوو أقدار، وفي هجاء كل واحد باب إلى شر طويل. فتأمل حدود الطلب قبل أن يختار جوابه، وأدخل نفسه في عموم المجلس، ثم هجا نفسه، فأضحك القوم وخرج من الحرج. بدأ المخرج يومئذ من توسيع السؤال؛ فالجواب الجديد ولد بعد أن سقط الحصر.

وكثيراً ما تتنكر الورطة في هيئة سؤال مهذب يقال بعده أجب بنعم أو لا. وفي لغة المناظرة الحديثة تسمى هذه الصيغة (Yes-or-No Question)، وهي مستقيمة حين تكون المسألة ثنائية حقاً. فإذا أخفى السؤال في جوفه دعوى متنازعاً فيها صار (Loaded Question)، أي السؤال المشحون؛ وإذا حبس الاحتمالات الواسعة في طرفين صار (False Dichotomy)، أي الثنائية الزائفة. ويبدأ حسن التخلص هنا بتحرير السؤال إلى دعاويه، ثم منح كل دعوى جوابها.

وأذكر أني لما كنت أقرأ (الإحياء) لأبي حامد الغزالي لمحت نمطاً عاماً عنده في معالجة هذه الإشكالية. ومن أمثلة ذلك قوله في كتاب العزلة (إذ كل مفصل، فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض). وفي خاتمة الباب قرر أن الحكم على العزلة والمخالطة مطلقاً بالتفضيل (نفياً وإثباتاً) خطأ، ثم رده إلى حال الشخص، وحال من يخالطه، والباعث، والفائت والحاصل. وفي هذا الصنيع يراجع الغزالي السؤال قبل الجواب، ويرد الأسماء المجملة إلى أحوالها المختلفة؛ فالتفصيل يعيد إلى كل حال حدها، وإلى كل حكم سببه.

وعند هذا الموضع عادت إلي كلمة أثبتها أبو حيان التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة) (الحاجة تفتق الحيلة، والحيلة تشحذ الطبيعة). تصف الكلمة أثر الضيق حين يهز قشرة العادة ويستدعي قوى بقيت ساكنة في السعة. وقد تستجيب النفس بالذعر فتبدد النظر، وقد يثبت العقل فيرتب المتاح ويستولد منه تدبيراً. فالشدة تكشف مقدار ما ادخره المرء من تجربة، ومقدار ما يستطيع توليده من حزم.

ويعود خبر الغار في خاتمة الجولة وقد استبان وجهه. رأت لحيان مدخلاً واحداً فحرسَته، ورأى تأبط شراً جهة أهملها الحراس. وقرأ ما تحت يده قراءة ثانية؛ فالعسل مادة للانزلاق، والزق واق من صدمة الهبوط، والفجوة جهة خروج. وفي تدبيره اجتمع أصل الجولة؛ احتفظ بالغاية، وبدل وظائف الوسائل.

وفي عجز البيت الأخير تكتمل صورة الحزم. يثبت صاحبه على الغاية، ويصرف قوته من مصارعة السد إلى طلب مجرى آخر. ظل رجال لحيان يحرسون الباب الوحيد الذي عرفوه، ومضى تأبط شراً من جهة لم يحسبوها باباً. وكذلك صاحب الحزم، إذا ضاق عليه السبيل، ولّد من قلب الأمر سبيلاً آخر. قد يغلق الجدار باباً، وللريح مجرى آخر.